

الأَغْنِيَاء

الكاتب: محمود شاكر



كانت ليلة السبت السالفة من الأسبوع الماضي، فوقي في دنياي أمرٌ مُفزعٌ كنت معه كمن عَمِى دهراً من عمره ثم أبصر، فأخذتني الحيرة أخذًا شديداً، وتضررت نفسي كما يتضرر الماء في مرجله على معركته من النار تشتعل من تحته وتنسّر، وتقاذفتني الهموم كما يتقاذف تيار البحر الأعظم موجة هائمة من موجته، وتَنَزَّى قلبي بين ضلوعي، كما تَنَزَّى الكَرْهَ مُقْذُوفة من عُلُّ، وهاج هيجي واضطرب أمري، وتغولتني الأفكار الخائفة الحزينة المجرحة التي تَدْمَى أبداً، فلا تحسم الدَّم، وانقلبت بهمّي أدوارُ في نفسي دَوْرَة المجنون في دُنيا عقله المريض المشعّث، وهكذا قضيت ليل أيامِي، وليس لمثل هذه الأيام نهار.

ودعوت ربِّي جاهداً، وكنت من قبل أدعوه، إنَّه هو البرُّ الرحيم، وكنت أرى الدنيا كلها وكأنما ارتدت لعيوني غلالةً من سراب تخفق عليها، وتميد وتتربيع، وإذا الأرضُ غير الأرض، والناسُ غير الناس، وإذا كلُّ شيء يجيء ويذهب، وبيينُ ويختفي، فقدت الأشياء معانيها في نفسي، فما أرى إلَّا بُؤساً وخاصصة وجوعاً وعُرْياً، وإذا كلُّ شيء بائسٌ فقيرٌ جائعٌ عارٍ لا يستره شيءٌ، اللهم إني فوَضْتُ أمري إليك، وألْجأْتُ ظهري إليك.... ومضيتُ أنسابُ في أيامِي البائسة، حتى إذا كان الليل في أوله مُذْ أمس، أويتُ إلى بيت كتبني آخذ كتاباً لا أَبْثُ ألقِيه كأنْ بيبي وبينه عداوة أو حقدٌ قديمٌ.

إغاثة الأمة

فضِقتُ ثم ضفتُ، وخنقني خانقُ الضَّجر واليأس، وغاظني ما غلبني على عقلِي وإرادتي، فأهويت بيدي إلى كتاب عزمتُ إلَّا أدعه، وإذا هو "إغاثة الأمة بكشف الغمة: للمقرizi" ، وفتحته وانطلقتُ أقرأ، فما أجوز منه حرفاً أَوْلَ إلَّا

وَجَدْتُ الْأَلْفَاظَ تَتَهَاوِي فِي نَفْسِي وَفِي عَقْلِي، وَكَانَهَا تُقْذَفُ فِيهِمَا مِنْ حَالِي، حَتَّى لَوْجَدْتُنِي أَسْمَعُ لَهَا فِيهِمَا صَلْصَلَةً وَدُوِيَّاً، وَهَذَا شَدِيدًا شَدِيدًا، كَانَ فِي نَفْسِي وَعَقْلِي أَبْنِيَةً تَنْقَضُ وَتَهَدُمُ فِي كُفٌّ زَلْزَلَةً.

وَإِذَا بَحْرٌ يَمْوَجُ لِعَيْنِي أَسْمَعُ هَدِيرَهُ وَزَئِيرَهُ وَزَمْجَرَهُ أَمْوَاجَهُ فِي الرِّيحِ الْعَاتِيَهُ، وَإِذَا هُوَ أَحْمَرُ كَالَّدَمِ يَفْوُرُ وَيَتَوَثَّبُ، وَإِذَا صَرْخَهُ تَخْفَتْ زَمْجَرَهُ الْأَمْوَاجَ، وَإِذَا هُوَ هَاتِفٌ يَهْتَفُ بِي: "قُمْ إِلَى صَلَاتِكَ، فَقَدْ أَظْلَكَ الْفَجْرَ!" .

فَانْتَبَهَتْ فَرِعَاعًا، وَإِذَا أَنَا أَقْلَبُ الصَّفَحَهُ التَّاسِعَهُ وَالْعَشِرِينَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَإِذَا خَطْوَطُ حَمْرٌ قَدْ ضَرَبْتُهَا فَوْقَ الْأَسْطَرِ: "وَدَخَلَ فَصْلَ الرَّبِيعِ فَهَبَّ هَوَاءُ، أَعْقَبَهُ وَبَاءُ وَفَنَاءُ، وَعَدَمُ الْقُوَّهُ حَتَّى أَكَلَ النَّاسُ صَغَارَ بْنِي آدَمَ مِنَ الْجُوعِ، فَكَانَ الْأَبُ يَأْكُلُ وَلَدَهُ مَشْوِيًّا وَمَطْبُوْخًا، وَالْمَرْأَهُ تَأْكُلُ وَلَدَهَا... فَكَانَ يَوْجَدُ بَيْنَ ثِيَابِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَهِ كَتْفٌ صَغِيرٌ أَوْ فَخِذَهُ أَوْ شَيْءٌ مِنْ لَحْمِهِ، وَيَدْخُلُ بَعْضَهُمْ إِلَى جَارِهِ فَيَجِدُ الْقِدْرَ عَلَى النَّارِ فَيَنْتَظِرُهَا حَتَّى تَتَهِيَّأُ، فَإِذَا هِيَ لَحْمٌ طَفْلٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَوْجَدُ ذَلِكَ فِي أَكَابِرِ الْبَيْوَتِ" (1).

أَين يعيش أحدهُنَا وَهُوَ يَقْرَأُ؟ هَذِه تَسْعَ سَاعَاتٍ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي قَضَيْتُ ثَمَانِي سَاعَاتٍ مِنْهَا وَأَنَا أَقْرَأُ هَذِه الْأَسْطَرَ الْقَلِيلَةَ أَكْلِبُهَا لِعَيْنِي فَتَتَقَلَّبُ مَعَانِيهَا فِي نَفْسِي؛ إِذْ كَانَتْ تَنْزَعُ فِي مَعْنَاهَا إِلَى الْآلَامِ الْمُفْتَجَرَةِ بَدْمِي فِي قَلْبِي، فَلَا يَكُونُ الْحَرْفُ مِنْهَا إِلَّا أَفْكَارًا تَشَعُّ وَتَرَاحِبُ، وَتَتَدَاعُى وَتَتَوَالَّدُ، وَيَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَلَوْ ذَهَبْتُ أَكْتَبُ مَا قَرَأْتُهُ فِي نَفْسِي مِنْهُ هَذِه الْأَسْطَرِ، وَمَا تَحْدَثَتْ بِهِ النَّفْسُ مِنْ حَدِيثِ أَكَلَ ثَمَانِي سَاعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، لَمْلَأُ ذَلِكَ مَا يَقْعُ في كِتَابٍ مُفْرَدٍ، وَلَكِنْ... .

لَمَّا لَا تَكُونُ هَذِهِ الْقَسْوَهُ الْمُتَوَحِّشَهُ إِلَّا مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الْمُتَحَجَّرَهُ فِي بَيْوَتِ

الأغنياء والأكابر؟ ولماذا يكون أقسى القسوة في قلب المرأة الغنية، فت تكون هي أعظم استهانة بجريمة أكل ولدِها الذي ولدَته؟ ولماذا يكون الفقيرُ والفقيرة دائمًا هما مثال الرحمة والحب والعطف والحنان؟ أليس الناس جميعًا - غنيهم وفقيرُهم - سواء في هذه الحياة؟ بلـى، ولكن...

المال..

ألا إنَّ هذا المال نعمة من نعم الله التي استخلف الإنسان عليها في الأرض، وفي الحياة الدنيا، ألا وإنَّ المال عصامٌ لهذا الكون الممتلئ بأسراره العجيبة، التي لا يُقضى من أتعاجيبها عجب، ألا وإنَّه للنظام الطبيعي الذي يجعل من قانونه سر الحياة الإنسانية، التي لا تسمو إلـى بالمنافسة والرَّغبة فيها والإصرار عليها، ألا وإنَّه لأعجب شيء في الحياة إذ يكون هو كل شيء، ثم هو ليس بشيء على الحقيقة، وإذا يكون في وهم الفقر القلق سر السعادة، ثم يكون عند الغني المسترخي، فلا يعرف به ظاهر السعادة.

ألا إنَّه العجب والفتنة؛ إذ يكون سر الحياة الإنسانية المدنية على الأرض، ومع ذلك فهو إذا ملأَ الغني أفرغه من إنسانيته، وإذا فرغَ الفقر منه امتلأ إنسانية ورحمة وحنانًا، ثم يكون بينهما أشياء في هذا وفي ذاك تختلط وتتضطرب، ويرمي بعضها في بعض حتى يصبح كل شيء فساداً لا صلاح له.

(أكثـر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت!) و (أكثـر ما يفعل ذلك النساء!), إنَّه ليس عجبياً، ولكنه مؤلم، إنه ليس بعيداً ولكنَّه مفزع، إنَّه هو الحقيقة الدائرة مع معاني الشراء والغنى والتَّرف والرفاهية، ولكنَّها الحقيقة الضاربة المتتوحشة، التي انطلقت من قيودها حين أزمتها الحاجة والقطـط والجوع، ونداء المعدة، التي تتلوى أمعاؤها كما تتلوى الحـيـة الجائعة على شهواتها المتجلـدة في فريستها، ليس هذا هو كل شيء، وليس القطـط وحده هو الذي يُضـرـي عبـيدـ المـالـ، فـيـأكلـونـ بنـيهـمـ وـبنـاتـهـمـ أـكـلـ الـوـحـشـ الطـاغـيـ بـطـغـيـانـ حـيـوانـيـتـهـ

التي تريد البقاء لنفسها، ثم لا تعرف غير نفسها، ولا تعبد إلا نفسها.

الأزمات عند الأغنياء

إن كل أزمة تطلق في أعصاب الأغنياء - إلا من رحم ربك - وحشاً أكلًا طاغيًا مستأثرًا لا يرى إلا نفسه، ولا يريد البقاء إلا لنفسه.

فإذا وقع القحط بين صديقين أحدهما غني كان صديقه طعامًا تفترسه الصدقة الغنائية! وإذا وقع القحط بين حبيبين أحدهما ثريٌ متصرف ثانية عنه يريد النوم؛ لأن شبع من حبه حتى تملأ! وإذا وقع القحط بين أخوين أحدهما غني، كان حرقاً على الرحم عليه أن يشرب ما بقي من دم أخيه يستولغ فيه حتى يرثى!

إن الترف والنعمـة والكفاية، وأحلام الغـنى، وكـنوز الثـراء، إن هي إلا المـاحقات الأـكلـات، التي تمـحق العـواطف الإنسـانية النـبيلـة حين لا مـلـجـأ إلا إلى الخـشـونة والـشـدة والـصـبر وـحـقـيقـة الفـقـر.

عن الفقراء ..

إن الفقراء هم أكثر الناس رغبة في النسل على ضيق رزقهم، والأغنياء أقل الناس إقبالاً عليه على ما يجدون من السعة.

الفقراء أشد حزناً على من فقدوا من أبنائهم وأحبابهم، ولكن أولئك لا يحزنون إلا ريث يشعرون الناس أنهم حزنوا، ولئلا يقول الناس: إنهم لم يحزنوا على أحبابهم الأغنياء

نعم هي زينة الحياة الدنيا، ولكن مع الزينة الخداع، ومع الخداع الضعف، ومع الضعف القسوة حين تجد ما يتلين لها أو يتـسـاهـل أو يـسـتـكـين ... أو يـثـقـ.

فَمَنْ صَادَقَ غُنْيَا فَلِيَحْذِرْ، وَمَنْ آخَى ثُرَيَا فَلِيَتَحَصَّنْ، وَمَنْ عَامَلَهُ فَلِيَرَهْبْ، فَإِذَا
بَلَغَ الْمَرْأَةُ الْغَنِيَّةَ فَأَحَبَّهَا فَخَيَّلَتْ لَهُ أَنَّهَا أَحْبَتْهُ فَوَثَقَ بِهَا فَقَدْ هَلَكْ، وَإِنَّمَا هُوَ
مَلْهَأً مِنْ مَلَاهِي التَّرْفِ، إِذَا فَقَدَتْ لَذَّةَ اللَّهُو بِهِ نَبْذَتْهُ لِمَا بَهُ.

المصدر:

جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، الجزء الأول، 163-166

الإشارات المرجعية:

كتاب "إغاثة الأمة يكشف الغمة" هو تاريخ الماجاعات التي كانت بمصر، وقد طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر منذ أسباع، وهذا الذي نقلناه من تاريخ الماجاعة التي كانت بمصر في الدولة الأيوبية سنة 596 هـ فقيل فيها: "سنة سبع افترست أسباب الحياة (شاكر)".

الكلمات المفتاحية:

#جمهرة-المقالات #محمود-شاكر #الأغانياء

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.